المرأة بين سيطرة الآخر وإثبات الذات

"اكتشاف الشهوة أنموذجا"

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على معالم الذات الأنثوية، قضاياها وانشغالاتها وهي تصارع المجتمع البطريكي/ الذكوري، المحمل بالسيطرة القامعة، ولهذا فهي تصارع داخليا طموحاتها الناجمة عن أزمة البحث عن الهوية الأنثوية المفقودة تحت سيطرة الآخر المغاير لجنسها فالمرأة كانت ومازالت في التصور غير العادل الأقل أهمية في ثنائية الآخر، الرجل، الذات المرأة.

وفي ظل العنف والبحث عن الذات الإنسانية المسلوبة راحت المرأة تشق طريقها، مقتحمة بذلك عالم الكتابة الروائية لتثبت نفسها، إيمانا منها أن الآخر لن يستطيع عكس مشاعرها الأنثوية والتعبير عنها بأقلامه، لا لشيء إلا لكونها "مخلوقا قاصرا رغم الثقافة والتعليم والمسؤولية (...) فصفة الأنوثة تشكل قيدا للمرأة" [(1)].

السبب الذي جعلها تفجر مكبوتاتها كحل لتحقيق انتصاراتها، وتفريغ دواخلها نحو العالم الخارجي بالقلم والحبر وبذلك تصبح هي الأقدر على حمل لواء تحرير المرأة من الخضوع للسلطة الذكورية المتوازنة بين الأجيال، والعاملة على اضطهاد النساء، إنها تسعى بشكل من الأشكال لرصد واقعها المهمش والمعتم، وكشف أزقتها المتقلبة وإضاءتها، لتتحول بذلك إلى ذات نصية.

إن الحديث عن الآخر الرجل، في مقابل المرأة الأنثى، هو الحديث عن العلاقة بين طرفين متقابلين ومتناقضين، أحدهما الذات المرأة التي تخضع للآخر على اعتبار أن التاريخ والثقافة يرجحان كفة الهيمنة لصالحه، في مقابل إضمحلال الذات الأنثوية تحت جناحيه.

وقد تجاوزت هذه الفروقات المتضادة الجنسين المرأة/ الرجل إلى أبعد من ذلك لتصبح المعادلة كما لاحظها "عبد الله القدامي" اللفظ هو فحل (ذكر)، أما المعنى فيعود للمرأة "لاسيما

وأن المعنى خاضع وموجه بواسطة اللفظ، وليس للمعنى المعنى من وجود ولا قيمة إلا تحت مظلة اللفظ" [2].

فاللغة لم تخل من هذا التمييز الجنسي النابع من ثقافة ذكورية متحيزة همشت دور المرأة واضطهدتها، بل وشيئتها لتصبح شيئا جميلا وممتعا.

ولهذا تقدم المرأة محاولة جدية لاكتشاف الذات بعيدا عن الأنماط الجاهزة والمتوارثة، وذلك باقتحامها عالم اللغة والكتابة الروائية، بإعتبارها الجنس الأدبي الأكثر قدرة على استيعاب هموم المرأة وتفريغ إنشغالاتها الذاتية والموضوعية، كما أتاحت لها فرصة الإعلان عن حضورها المستقل عن الأخر، والإعلان عن آناها المبدعة، بإعادة تشكيل لغة تناسب طموحاتها، وآفاقها الواسعة" لقد أتاحت الرواية للكاتبة –أساسا– فرصة الوقوف على الراوي والرواية على قدم المساواة مع الكاتب، وحضرت الشخصية الروائية النسائية، ولأول مرة ككيان ذي رؤية خاصة للعالم" [3].

ومن هذا المنطلق أصبحت المرأة المبدعة في تنافس كبير مع الرجل، في إرتياد الكتابة بمختلف أجناسها خاصة الرواية متخذة من وجودها المضطهد، ومن علاقاتها الجنسية بالآخر موضوعا رئيسا في بلورة كتاباتها.

وواقع الكتابة الروائية يدل على أنها تسعى جاهدة إلى تأكيد الهوية المتميزة الراغبة في التحرر من أشكال الاستلاب والاضطهاد إلى حد أصبحت "لا تحيا لنفسها، ولا بنفسها إنها للزوج وبالزوج (...) وهي تنظر بعينيه وتسمع بأذنيه، وتحيا بإرادته وحدها، في مجتمع جاهلي متخلف يخيم عليه ظلام عبودية المرأة، وقد مارس وأد المرأة معنويا: كما مارس الأجداد وأد المرأة جسديا" [4].

هو إذا التهميش والاستلاب الذي كانت ولا تزال تتعرض له المرأة عامة، والمبدعة خاصة، من خلال كتابات الرجل الذي يسعى جاهدا إلى تأكيد وتكريس تبعيتها له، وتفوقه عليها في جميع الميادين وهو ما جعلها "تطرح قضاياها الخاصة بها وهي قضايا كانت تصل في بعض الأحيان إلى المنتهى" [5].

وما تطرحه الخطابات الروائية يؤكد أن الرواية هي "أداة هذا الوعي والمعبر عنه، فهي كما تؤكد النصوص الروائية أكثر جرأة وتماديا في الغي" [6].

ولهذا بات بالإمكان الإمساك ببعض السمات الخاصة بالإبداع النسائي، نظرا للظروف السياسية والإجتماعية التي ظهر فيها، ولكنها سمات لا تخرج عن القوانين العامة للكتابة الروائية، إلا أنها تنطوي على بعض الحساسيات المختلفة التي لا يمكننا أن نلمسها في كتابة الرجل "بسبب إختلاف التجارب لكل من الجنسين المرأة/ الرجل بالإضافة إلى ألوان القهر الإجتماعي المختلفة، فهو من ساهم في نسج تلك الحساسية المختلفة في كتابة رجل وكتابة إمرأة"[7].

بكل تأكيد شكلت المرأة في العقلية الذكورية المهيمنة الكائن المستضعف الذي لا يستطيع حماية نفسه، ولا تمثيلها إلا بالإنطواء تحت رحمة الآخر الذي ينظر إليه على انه شيء من الأشياء الخاصة، وهو ما ساهم في عبودية المرأة الجسدية أو الإقتصادية والأسرية وبالتالي زجها على الهامش المعتم بحكم هيمنة قيم ومعتقدات وأفكار، وسلطات متحيزة تتعامل مع المرأة جسدا ومتعة.

وهذا ما يفسر حضور جسد المرأة في كتابات الآخر مقابل غياب أوصافه "وذلك يعود إلى أسباب سياسية وإجتماعية وأسطورية ترى الرجل الإله روحا وترى المرأة شيطانا جسدا"[8].

وبذلك يظهر الرجل الطاهر، في أعلى مرتبة مقابل إغفال المرأة التي لا تظهر إلا على أنها جسد مدنس ومؤثم.

من هذا المنطلق جاءت أهمية دراسة "الأدب النسائي" باعتباره الطرف المعاين في هذه الدراسة من أجل الإجابة عن الكثير من الأسئلة المتعلقة بالأنا في مرآة الآخر، وهل ما زالت العقد التاريخية المتوارثة موجودة إلى يومنا؟ عقد وأد المرأة معنويا وجسديا أم أن الآخر أعطى لنفسه أبعادا مغايرة تجعله يتيح الفرصة للآنا كي ترى إنسانيتها من خلاله، وأن تتحاور معه حوار موضوعيا يجعلهما روحا واحدة.

وقد اخترنا لذلك اسم روائية جزائرية، أخذت على عاتقها البحث في قضايا المرأة بواسطة الحكي من أجل تغيير المنظومة الثقافية، وتحرير المرأة من سجن القمع، وجذور الظلم المجحفة في حقها، بالإضافة إلى أنها أنثى عانت بسبب جنسها كثيرا "فقضية المرأة في الأعمال الأدبية، والرواية بشكل خاص تتناول مشكلة خضوع المرأة واضطهادها (...) أما معالجة الأصناف الأدبية لموضوع المرأة فتمتاز بالحرية في التناول والجرأة في الطرح وإغفال الصورة المثلى للمرأة كما يتخيلها الروائي" (9).

يجد من يتتبع الخطابات الروائية أن المرأة تشغل حيزا كبيرا من خلال التعبير عن واقع الأنثى الحاملة لشعار الحرية والتحرر من سلطة الخضوع للرجل، ويتم بذلك إنتاج خطاب يعمل على تغيير البنية الثقافية المشوهة التقليدية الطابع، ومحاولة إثبات ذات جديدة "لذا نجدها قد تطورت تطورا ملموسا في كتاباتها الموضوعية، فلم تعد تلك الرومانسية الحالمة التي سيطرت على أحاسيسها بقلمه، بل مارست كتاباتها حياة المجتمع ككل، وخصوماته ومشاكله الإجتماعية والأسرية السياسية وكانت لغتها معبرة كل التعبير عن ذاتها وعن مجتمعها" (10).

يعبر هذا القول عن ريادة المرأة من خلال سبرها لأعماق الواقع الاجتماعي والسياسي، والأسري وأعماق الذات الأنثوية في محاولة اكتشاف واقع جدي وأفضل للتغيير على الصعيد العام للمجتمع "فالنساء يحللن وينقدن الواقع الإجتماعي والسياسي ويستحضرن رؤيا جديدة تضع الأسس من أجل إعتاق كل من الرجل والمرأة" (11).

ثم إن إبداع "فضيلة الفاروق" يمتلك هذه السمات من خلال نظرتها للواقع الجزائري وأزمته، بالإضافة إلى تأثرها بالهموم التي عاشتها وجربتها، وكونت بذلك شخصيتها، وهذا ما يجعلنا نقول أن الرواية حتى وإن كانت فن المتخيل، إلا أنها في الوقت نفسه حصيلة لمجموعة من التجارب المعيشة.

الواقع أن الروائية "فضيلة" عملت على خرق المقاييس والقوانين التي تحكم المجتمع، متخطية بذلك حدوده من أجل كسر الطابوهات التي أرهقها وأرقها الواقع، لتفسح المجال لبطلتها أن تمارس التخطي ضد الواقع الذي يهدد كيانها ويدمر وجودها، الواقع الذي يفرض على المرأة الخضوع للمجتمع بأخلاقه وشرائعه التي تمنع مثل تلك الإباحيات، وبذلك شرعت الكاتبة كل

أبواب الإباحيات بأن تطفو إلى السطح من أجل تحرير المرأة من الحدود التي وظفتها ذهنية الرجل، وماضوية الثقافة البطريكية القامعة التي لا ترى المرأة إلا جسدا، ولا تؤمن بها روحا وإبداعا.

شكلت دونية المرأة في وعي "الآخر" إشكالية خطيرة في نظر الروائية التي أخرجت لنا رواية "إكتشاف الشهوة" وهي تروي لنا واقع المرأة المأزوم التي تصارع "الآخر" نظرا لطبيعته القاسية مما يجعل الثقافة الذكورية تتبوأ موقع السلطة تجاه المرأة الجسد التي تشكل التبعية.

لقد استهلت الروائية "فضيلة" روايتها بالحديث عن قضية مهمة تعاني منها الأسر الجزائرية وهي تفتح نافذة إلى الخارج فكرا وثقافة، لولوج نمط من الحرية والرغبة في العيش الزهيد، وكأن الخروج إلى عالم مغاير يوفر مساحة أوسع للذات لتحقق نفسها، ولكن هذا ما لم نلمسه مع بطلة الرواية التي عانت إنغلاق الفضاء المكاني "البيت البارسي"، من أجل إستمرارية الحياة.

وهذا ما لم تقبله الكاتبة، ومن ثم وجدنا الأحداث تنحى منحنى التمرد، ولهذا لجأت الكاتبة إلى الزمن المطلق حيث لا حسيب ولا رقيب، إنه زمن الغيبوبة الذي لا يخضع للضبط الميقاتي لأنه مجموعة من القضايا التي تنبض من معين المخيلة الساخطة على الواقع، هذا الواقع الذي جرد المرأة من كيانها، وإنسانيتها، ودمر وجودها مما يجعلنا نحكم على عنوان الرواية بأنه عنوان يحمل الرغبة في تحرر الجسد من القيود والسيطرة للوصول للمتعة الجسدية التي خضعت للكبح بألوان القهر والعذاب وعدم الفهم من قبل الآخر، إنه يحيل إلى الرفض والخضوع لرغبة مشوهة، تنتهك الجسد وتهمشه.

لقد اختارت الكاتبة في رواية "اكتشاف الشهوة" المرض كمرحلة زمنية تفصلها عن الواقع، حيث الحدود الزمنية والمقاييس تحكمها قوانين الخوف والسيطرة، ولهذا وجدناها متحررة ومتمردة على جميع هذه القوانين والتقاليد، والعادات السلبية الفاسدة التي تجعل المرأة تعيش حياة المهانة والذل.

وما يهمنا من هذه الدراسة هو تتبع صورة المرأة في الرواية المتأرجحة بين الخضوع والنمطية، والتمرد من أجل التحرر وكيف كان عالم الكتابة متنفسا حقيقيا لتحقيق الذات التي

وجدت نفسها حيل جدلية الوعي، والغياب والرغبة في الحصول على الحقيقة، حقيقة هذه الذات وخصوصيتها لنحصل على نمطين إنبنى عليهما النص الروائي "إكتشاف الشهوة".

النمط الأول: المرأة في المحيط الأسري الخاضعة لسلطة الذكر.

النمط الثاني: الأنا المقهورة المتمردة الراغبة في تحرر الكيان والجسد معا.

قبل أن تكون رواية "اكتشاف الشهوة" خطابا روائيا قائما بذاته كانت قضية إنسانية عاشتها وتعيشها الأسر والأزواج، ولهذا فالروائية اختصرت الحياة الزوجية للنساء جميعا في حقبة زمنية محددة تاريخيا، معلنة بذلك عن حدودها الزمنية والمكانية، لكن الملاحظ أن الروائية أوكلت مهمة الحديث عن واقع المرأة إلى الضمير السردي الواحد الدال على الذات المفردة المؤنثة/ الأنا التي نجدها قلقة، متوترة، ساخطة على الآخر الذي أتعبها وأرهقها ولهذا نجدها تقول "هل تعرفين حين تزوجت كنت أظن أن كل مشاكلي انتهت، ولكني اكتشفت أنني دخلت سجنا فيه كل أنواع العذاب، (...) بين ليلة وضحاها أصبح المطلوب مني أن أكون عاهرة في الفراش، (...) أن أكون إمرأة منسلخة الكيان أن أكون نسخة عنه وعن تفكيره المشكلة تجاوزني يا (شاهي) ولهذا تطلقت" [12].

"لقد سجني في نمط حياته المفرغ تماما من أشكال الثقافة فمعه الحياة مبهمة... هي لفيف من الفوضى التي عكرت صفو حياتي" [13].

"يفعل ذلك في كل مرة بسرعة ودون أن يعطي مجالا لأعبر عن وجودي... يسلمني بعدها للأرق" [13].

"لا أيتها الحقيرة لست بحاجة إليك" [15].

فالروائية تطرح قضية الجنس كإشكالية محيرة تقود إلى العلاقة غير المتوازنة والمبتورة بين المرأة والآخر، ولهذا فالجنس "من المضامين الأدبية الحساسة والشائكة التي أثارت جدلا واسعا، وخلافا عميقا بطول تاريخ الأدب العالمي، فلم يكن من الممكن تجاهله بحكم أنه من الدوافع الأساسية المحركة للسلوك الإنساني، وفي الوقت نفسه لم يكن من الممكن تناوله دون

حساسيات إجتماعية وتاريخية ونفسية تتراوح بين الحرية والتحريم المطلق طبقا لنوعية المرحلة الحضارية وروح العصر" [16].

هذا يعني أن الجنس جوهر العلاقة بين الطرفين المرأة/ الرجل إذا كان مبنيا على الأسس الحميمية والعاطفية التي تكون علاقة جسدية شهوانية، لأن المرأة تبحث دائما عمن يشعرها بالحب والأمان، وهذا ما لم تجده بطلة الرواية "باني" في علاقتها بزوجها المعطوب فكريا وثقافيا، وعاطفيا الذي انتهك جسدها الأنثوي بطرق بشعة وحاول تهميشه.

كما تطرح الروائية قضية الخوف، خوف المرأة من البوح عن مكامنها الداخلية، لأن الإفصاح عنها يعد محرما وممنوعا في مجتمع يأسر ويكبل الأنثى، ويدفع بها إلى الكثير من العقد النفسية تجاه الجسد الأنثوي، الذي يجب أن تخجل منه ولا تتحدث بشأنه "شيئا فشيئا أبحت إمرأة عصيبة معطلة الحواس تتضايق من أنوثتها المنتهكة، من منظرها في المرآة... كنت أموت وأموت كثيرا، في كل الأوقات أموت" [17].

"لا يمكن لامرأة أن تعترف بأنها تحب زوجها؟ الإعتراف بالحب شبهة والشبهة تعني الظلالة، (...) ما أخطر الإعتراف بالحب، إذن فهو كالزنا، كإحدى الكبائر، كالقتل" [18].

لقد تحولت المرأة إلى أنثى محملة بالعقد تجاه الأنا والجسد نتيجة الحصار الفكري الذي وأد فكرها، وأصبحت بذلك مضطهدة في صمت داخلي، يمنعها المجتمع الذكوري من ممارسة حقها حتى في الحب، الذي ينظر إليه المجتمع الجزائري بأعين الريبة والقلق، بسبب الخلط بينه وبين الجنس، ولهذا بقيت المرأة متخوفة من الإفصاح عن تلك المشاعر الأنثوية الرقيقة حتى مع الزوج ولهذا نجد "الخضوع لرغبات الرجل المسلمة الوحيدة التي تكفل المرأة استمرارها" [19]، حتى أصبح الهروب من قبضتها وسلطتها مستحيلا.

ولهذا تلجأ المرأة في كثير من الأحيان إلى الهروب من سطوة الواقع، لتجد نفسها حلولا ترجع الحياة لجسدها المنتهك كالخيانة "أدركت ما معنى أن نهرب من زوج وننطلق مع رجل آخر، ما معنى أن نقترب من بوابة الخيانة ونقرعه، ما معنى أن نكون في عالم رجل وندخل عالم رجل آخر" [20].

إن عدم الاحترام والاحتقار الذي تعرض له المرأة هو ما يجعلها تلجأ إلى مثل هذه الحلول غير شرعية، الأمر الذي جعل المرأة دائما في صورة سلبية من طرف الرجل الذي يبدو في صورة أخرى حينما يتعلق الأمر برغباته وغرائزه، فيعمل كل المستحيلات كي تنجح مخططاته فهو الرابح الأكبر في هذه العلاقة.

ولهذا كان موقف الروائية جريئا جرأة غير عادية في طرح قضية اجتماعية حساسة برؤيا واضحة بعيدا عن الخوف والتشويش.

1. النمط الأول المرأة في المحيط الأسري الخاضعة لسلطة الذكر:

لطالما سقط الرجل والمرأة ضحية للكثير من الأعراف، والتقاليد الاجتماعية التي تقوم على مبدأ الإجحاف في حق كل منهما، لأن كل تجاوز تخطي للتقاليد يعد خرقا للمحضور.

لهذا ينظر المجتمع العربي عامة، والجزائري خاصة للأنثى بخلاف الذكر، لأنها في المرتبة الثانية الخاضعة والتابعة للسلطة الذكورية المتوارثة بين الأجيال، التي تضطهد النساء، فالمرأة كانت ولا تزال مصدر العار بالنسبة للرجل ولهذا يكرس وجوده لمراقبتها وخنقها بالعادات والتقاليد وكأنه بهذه المراقبة يسعى إلى حفظها والحرص على سلوكها وشرفها، كما أن الجميع يحرص على تزويجها من أول خاطب من رجال العائلة أو غيره، وهذا ما حصل مع "باني" "جمعتنا الجدران وقرار عائلي بال، وغير ذلك لا شيء آخر يجمعنا، فبيني وبينه أزمنة متراكمة وأجيال لكن وشك الإنقراض" [21]، لقد قررت العائلة تزويجها من "مود" ابن الحضارة الباريسية دون احترام لمشاعرها ولا لفارق السن بينهما وهو ما ساهم في اضطهادها وتهميشها، بل وفي عبوديتها الجنسية حيث تحولت إلى وعاء للجنس لصالح الآخر، ومن الصور التي نخرج بها من هذه الرواية ما يلي:

- ميول الأنثى للآخر والرغبة في الامتثال بالأقوى:

"كانت رغبتي الأولى أن أصبح صبيا ولهذا تحولت إلى كائن لا أنثى ولا ذكر، لا هوية لي غير الغضب الذي يملأني تجاه العالم (...) كنت الصبي ذا الظفائر الطويلة... كنت صبيا مشوها يخلق عالمه الخاص" [22].

إنها الرغبة في التماهي في شخصية الذكر لأنه الأقوى والأقدر.

- رفض خروج الأنثى إلى الخارج:

"رآني ذات يوم مع عصابة (أبناء الرحبة) عاد إلى البيت هائجا كثور مجنون، وأضرم النار في سريري، وقد كاد البيت يحترق (...) وقد وقف والدي أمام فعلته، مديد القامة فخورا بما حدث وقال له في المرة القادمة عليك أن تحرق السرير حين تكون نائمة عليه" (23).

يبدي هذا المقطع فهما دقيقا لما تعانيه المرأة في الأسرة التي تكبلها بأغلال المراقبة، "حتى الصغير في إخواننا يراقبها ويرى فيها عارا لديه لابد من المحافظة عليه" (24)، إنه الحصر والانغلاق الذي تسعى المرأة إلى الخروج منه إلى حيث الرحابة والاتساع.

- الخضوع للسلطة الذكورية رغم الرفض الداخلي:

"كان والدي يفعل ذلك بوالدتي، وكان يمسكها من شعرها ويرغمها على الركوع أمام قدميه ويردد حتى تموتي، حتى تموتي، حتى تموتي" (25).

"صفعني حتى وقعت أرضا ثم أمسكني من شعري وراح يزمجر ستعودين إليه (...) ستركعين أمامه مثل كلبة، وستعشين معه حتى تموتي" (26).

"حين يبحث عن جسدي لا يهمه أن هذا الجسد كيان يشبه كيانه، وأن لي غريزة ومشاعر (...) قال لي من علمك أن المرأة تشعر باللذة" (27).

هذه الصور التي رصدناها تناقش سيطرة العادات والتقاليد التي تحملت المرأة عبئها الثقيل على مبتغياتها، لهذا ركزت الروائية على مصير المرأة المأساوي في ظل السلطة الأسرية القامعة، ما جعلها بين نارين، بين تحرير المرأة وتسلط الذكورة التي تقف حائلا أمام تحقيق رغباتها كأنثى.

لقد اعتبرت الكاتبة النص الروائي متنفسا لآلامها وللتعبير عن العالم الداخلي الرافض، مقابل العالم الخارجي القاهر والمهمش لدور المرأة التي تعاني الصراع بين الذات والواقع "الموروث الذي يعطي الرجل حقه، بل واجب القوامة، ويرى المرأة تابعة له، وعاء لأبنائه،

ظلا من ظلاله (...) هل يمكن القول أن الكاتبة بصفتها إمرأة تصل هذه المرحلة من الإدراك تحت وطأة صراعات عميقة الجذور، يلتبس فيها التشوق للتكافؤ باليقين العميق من استحالة تحقيقه" (28).

فالروائية "فضيلة الفاروق" تلقي الضوء على مسألة جديرة بالتوقف عندها مليا وتتعلق بالثقافة الذكورية، والتاريخ الفحولي المعروف الذي طالما اعتبر المرأة دمية خرساء لا تملك سبيلا للنجاة والعيش بسلام، إلا بالإنطواء تحت رحمته القاسية الظالمة، لأنه الأقوى ولهذا جعلت الكاتبة من قلمها أداة لإدانة هذا الأخير المتسبب في دونية المرأة الأنثى، لتكون روايتها رواية الحزن والأسى، المتعلق بالصوت النسوي بإعتباره الطرف المتضرر من معاملة الآخر خاصة فيما يتعلق بالجسد والعلاقة الجنسية التي تفتقر للتوافق.

2. النمط الثاني الآنا المقهورة المتمردة الراغبة في تحرر الكيان والجسد معا:

إن الصورة التي يعكسها هذا النمط، هي صورة بشعة ومستكرهة عن المرأة النمطية الخاضعة للآخر، مقابل تجسيدها لصورة واحدة في شخصية واحدة حملتها بالتمرد عن المحضور، وفضح وتعرية الواقع المزري الذي تحياه المرأة المتزوجة فالمرأة "مازالت محتاجة ومضطرة لأن تتكلم باسم كل النساء وليس باسمها وحدها فحسب" (29)، لأن القضية الهاجس التي تشغل بال إحداهن هي بالتالي قضية موحدة تشغل بال جميع النساء وليست قضية فردية.

ولهذا عمدت الروائية على رصد الكثير من المقاطع السردية التي تتفحص الجنس بدقة القائم على المعاملة الفجة التي تتلقاها المرأة من الزوج، ولهذا راعت موقع القارئ وعملت على دمجه في عالم الرواية للتأثير فيه محاولة إقناعه بالفكرة المركزية للنص لتحسسه بآمال وألام المرأة من أجل مراعاة مشاعرها المليئة بالعواطف والأحاسيس شأنها شأن الآخر المغاير لجنسها، الذي تحيا معه من أجل مشاركته أعباء الحياة، في علاقة يجمعها الود والسكينة وليس فيها عبد وسيد.

إن الواقع الأليم وحرمان المرأة هو ما جسدته الكاتبة في شخصية "باني" التي أرغمت على الزواج من "مود" فتتزوج وتسافر منذ الليلة الأولى إلى باريس، ولكنها ولسوء الحظ تتعثر

بتفاصيل كثيرة لم يحسب لها حسابا تتمثل في الجو المنزلي الذي يعبق برائحة وتفاصيل الزوجة الباريسية التي نسي الزوج أن يحتاط لها أو تعمد ذلك.

تعلن البطلة عصيانها منذ تلك الليلة المشؤومة التي كانت بداية لتعاستها وسجنها، والشيء الملفت للإنتباه هو الإحساس بالنفور وعدم التوافق بين الإثنين: "لم يكن الرجل الذي أريد، ولم أكن حتما المرأة التي يريد ولكننا تزوجنا" [30].

عانت البطلة من قسوة زوجها الذي كسر أنوثتها، غير مبال بالألم الذي يسببه لها الفعل الخال من أية إنسانية ما جعلها في حالة اغتراب عن ذاتها التواقة للحرية الجسدية، واللذة الجنسية التي لم تعرفها مع هذا الزوج الخالي من الأحاسيس.

ولهذا فهي تعيش وسط الذهول والرتابة من خلال مرحلة التمزق العميق، والتناقض بين معطيات الواقع الذي تحياه معاملة الزوج القهرية، والمعطيات الحقيقة للغة الجسد التي لم يفهم منها شيئا، لقد استطاعت الروائية أن تجعل الإحساس بالشهوة باعثا ملحا بكم هائل من الأحزان والقلق.

إن تصور المرأة للزواج في المرحلة الأولى قبل أن تتواجه معه مباشرة سطحي وساذج، ولكنها عندما تعاينه معاينة ذاتية وتحس بالمرارة والقسوة في معاملة الزوج تتحول نظرتها له، وهذا ما حصل مع "باني" التي اختارت الهروب من سجن الزوج عبر مطية الخيانة، فذاتها لم تتقبل ولم تهضم هذا الزواج الذي أصبح حتمية لا مفر منها.

ويعبر زواجها عن هذه الحتمية في استسلام حزين وذات مقهورة محاولة التحرر والتمرد، ليصبح الزواج بالنسبة لها وثيقة باطلة، لأنه أضاف لذاتها حزنا عميقا وهزيمة مرة.

فكل ما يتعلق بـــ "مود" وتفاصيله وممارساته العدوانية يدعو للفرار لأن المعاشرة لا تقاس بالقوة والسرعة "يفعل ذلك كما في كل مرة بسرعة ودون أن يعطي مجالا لأعبر عن وجودي" [31]، بل بما يمكن أن تخلفه من شعورا بالرضا والسعادة واللذة.

لكن هذا ما لم يكن من حظها لأنها إزاء كل علاقة تصاب بالتعاسة والإحباط "يسلمني بعدها للأرق" [32]، نتيجة انعدام العوامل العاطفية والنفسية من رقة وحنان وقد يكون "لهذه الممارسات تأثير للدين والثقافة والمجتمع في تحديد شكل النشاط الجنسي" [33].

فالعملية الجنسية في جوهرها عملية عاطفية تزداد حدتها كلما كانت مصونة بسياج من العواطف الرقيقة، والعلاقات الحميمية والتواصل والتهيؤ للممارسة "يمسكني من كتفي ويحاول طرحي أرضا... سأضاجك أيتها... سأثبت لك أن لا رب في هذا البيت غيري" [34].

ولا يمكن تصورها تؤدى بطرق ميكانيكية آلية، وحيوانية شهوانية لأنها ليست مجرد استجابة بيولوجية بحتة كما كان يفعل "مود" مع "باني" في كل مرة.

وهذا ما لم تقبله "باني" لهذا قررت البحث عن الشهوة والمتعة في أحضان رجل آخر، للخلاص من الاضطراب الذي تعيشه في منزلها، فهي تدرك تماما أن الهروب سيوقعها لا محال فيمن يفهم لغة جسدها، وهذا ما حصل فعلا مع "قبلة إيس" التي ظلت متمسكة بها للأثر العميق الذي خلفته في نفسيتها المفتقرة لمثل هذا الإحساس يقول "د. فرديريك كوهن" الألماني "القبلة من أكبر دلائل الوفاق" [35]، الجنسي الذي غير مسار حياتها، وما تكتشفه "باني" مع "توفيق" أكبر بكثير فمن خلال علاقتها به تكتشف إنسانيتها وكيانها المدمر، فللمرة الأولى في حياتها تجد رجلا يعاملها بشكل حساس، وينظر إليها باهتمام حقيقي ويعجب بتفاصيل جسدها ويطوقها بالحنان المنعدم "أسمع لا أعي فقط سيول من اللذة تنهمر علي من جسده" [36].

هذه التفاصيل الصغيرة والهامة جدا في الوقت نفسه مكنت "باني" من مشاركة "توفيق" شبقيته حيث تلاشت الحدود بينهما ليصبحا روحا واحدة في جسد واحد "الآنا والآخر"، وهو ما افتقدته مع زوجها الذي كان يعتبرها مجردة من العواطف وكأنها تحفة منزلية.

تحي "باني" من جديد معتزة بإنسانيتها التواقة للعيش بحرية وكرامة وسلام مع الآخر ومع ذاتها، ويحصل إكتشاف الذات ورؤيتها على حقيقتها في مرآة الآخر "توفيق".

إن القضية التي طرحتها الروائية "فضيلة الفاروق" ضمن رواية "إكتشاف الشهوة" تجعلنا نضعها ضمن خانة من يبحث عن الجسد الأنثوي باعتباره قيمة خرساء في نظر الآخر، محاولة

اكتشافه وعدم تركه عرضة للحط من قيمته، كما تسعى للحفاظ على هذا الجسد وحقه في الاستمتاع، فالروائية تسعى لسلامة النساء من قبضة الآخر الذي قضى على المرأة بعدم فهمها وفهم طبيعة جسدها الأنثوي، وهو ما يرسخ إحساسها بالنقص والدونية.

إنه طرح جسدي بحث لجسد عانى الكثير ولا يزال يعاني من طبيعة الرجل القمعي، هذا ما جعل الكاتبة تدعو للرفق بهذا الجسد "تقصدت أن أخاطبه وأعرفه ما معنى جسد المرأة وكيف تفكر فيه حين يكون سيئا معها وكيف تفكر فيه حين يكون لطيفا ومتفهما معها، إننا شعوب تجهل أجسادها لأن الجسد عندنا كله طابو، جسد المرأة مصيبة ولهذا نحن نعاملها كبقرة لا كأنثى إنسان، علينا أن نصحح للجيل الجديد أفكاره ولا نرمي الجنس فقط لاصطياد القارئ، الجنس عندي ليس مصيدة إنه إحدى القضايا المؤلمة" (37).

إننا نوافق الكاتبة على أن الجنس خطاب إنساني راق، فلا عقدة تجاه الجسد ولا خوف من الحقائق العلمية، ولا ضير في طرح مادة الجنس لأن الجنس ليس شيئا غريبا عن حياتنا، بل هو أمر طبيعي يعرفه جميع الناس بغض النظر عن الوضع الإجتماعي والثقافي لهم، لكننا نعارض بل نستنكر طريقة الطرح وتوظيف المعلومات بصورة فاضحة "حيث تجعل المرأة هذا الصنف الإنساني المقدس سلعة تجارب وألعوبة ملذات، فضلا عن الأداء العلمي الفاحش الذي يشكل أذية وخطرا على صغار المجتمع من فتيان وفتيات، فينشؤون على ثقافة تزرع في نفوسهم بذور الضياع والانحلال الأخلاقي" (38).

الـهوامش:

1. صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى، الجزائر، ط 1، 2003، ص 27.

2